

سُنَن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها

الكاتب: محمد هَيْشُور.
 الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،
 القاهرة.
 الصفحات: 329 صفحة.
 سنة النشر: 1996 م.



مراجعة: رشا حسين الحاج*

«والمنهج الذي يجب أن يُتَّبَع... لتحقيق غاية الإنسان من الوجود هو أن تفقه سُنَن الله بالرجوع إلى القرآن، واستقراء سُنَن الله من خلال تاريخ الأمم الخالية، ومعرفة طريقة تعامل هذه الأمم مع حقائق الوجود، وموقفها من الأنبياء والرُّسُل» (محمد هَيْشُور).

* ماستر تاريخ وأنتروبولوجيا في الجامعة اللبنانية، وماستر الهجرات في الجامعة اللبنانية الأمريكية.

يُسَلِّطُ الكَاتِبُ الضُّوءَ عَلَى مَوْضُوعٍ عَمِيقٍ يَتَعَلَّقُ بِالْحَضَارَاتِ، وَهُوَ سُنَنُ قِيَامِهَا وَسُقُوطِهَا مِنْ مَنْظُورٍ قُرْآنِيٍّ؛ إِذْ يُبَيِّنُ أَنَّ ثَمَّةَ سُنَنًا إلهِيَّةً وَقَوَانِينَ ثَابِتَةً لَا تَتَبَدَّلُ، تَحْكُمُ مَسَارَ الْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ. فَسُنَّةُ اللَّهِ فِي التَّارِيخِ تَقْتَضِي أَنْ تَتَقَلَّبَ الْأُمَمُ بَيْنَ الْإزْدِهَارِ وَالْإِنْحِدَارِ، وَالْبَعْثِ وَالتَّقَهُّقْرِ، نَتِيجَةً لِأَسْبَابٍ وَعَوَامِلٍ مَحَدَّدَةٍ.

يَتَنَاوَلُ الكَاتِبُ فِي عَمَلِهِ عَدَدًا مِنَ الدَّرَاسَاتِ الَّتِي تَطَرَّقَتْ إِلَى الثَّنَائِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ بَيْنَ الْقِيَامِ وَالسَّقُوطِ، مَشِيرًا إِلَى آرَاءِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَفْكَرِينَ. فَعَلَى صَعِيدِ الْمَفْكَرِينَ الْغَرْبِيِّينَ، عَرَضَ آرَاءَ كُلِّ مِنْ: «كارل ماركس» (Karl Marx)، و«أوزفالد شبينغلر» (Oswald Spengler)، و«أرنولد توينبي» (Arnold Toynbee). أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَفْكَرِينَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ اسْتَعْرَضَ رُؤْيَ كُلِّ مِنْ: ابْنِ خَلْدُونِ، وَمَالِكِ بْنِ نَبِيِّ، وَأَبُو الْأَعْلَى الْمُوْدُودِيِّ.

وَاسْتِنَادًا إِلَى الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، يَسْعَى الكَاتِبُ إِلَى اسْتِخْلَاصِ رُؤْيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ شَامِلَةٍ حَوْلَ سُنَنِ قِيَامِ وَسُقُوطِ الْحَضَارَاتِ، كَمَا يَتَنَاوَلُ سُنَنَ التَّجْدِيدِ، وَالْإِسْتِبْدَالِ، وَالْإِسْتِخْلَافِ، وَوَرَاثَةِ الْأَرْضِ، وَالتَّمْكِينِ الْحَضَارِيِّ، وَأَجَالَ الْأُمَمِ؛ مُؤَكِّدًا فِي ذَلِكَ عَلَى أَهْمِيَّةِ الشُّرُوطِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَضُرُورَةِ التَّغْيِيرِ الذَّاتِيِّ وَالْإِعْدَادِ الذَّاتِيِّ لِلْأُمَمِ.

مفهوم السنن والحضارة في القرآن

تَدُلُّ كَلِمَةُ «السُّنَّةُ» فِي اللُّغَةِ عَلَى نَهْجِ الطَّرِيقِ. أَمَّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَتَدُلُّ عَلَى الْقَانُونِ. وَعِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ، تُطَلَّقُ عَلَى سِيَرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، مِنْ قَوْلٍ وَفَعْلٍ وَصِفَةٍ خُلُقِيَّةٍ. وَتَنْقَسِمُ السُّنَّةُ لَدَيْهِمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: السُّنَّةُ الْقَوْلِيَّةُ وَهِيَ أَحَادِيثُ النَّبِيِّ ﷺ، وَالسُّنَّةُ الْفَعْلِيَّةُ وَهِيَ أَعْمَالُ النَّبِيِّ ﷺ، وَالسُّنَّةُ التَّقْرِيرِيَّةُ وَهِيَ مَا أَقْرَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ بِسُكُوتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ.

أَمَّا فِي التَّشْرِيحِ الْإِسْلَامِيِّ، فَالسُّنَّةُ هِيَ الْمَصْدَرُ الثَّانِي بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَا لَمْ يَنْصَحْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ حَكَمَتْ فِيهِ السُّنَّةُ. وَكَمَا يَشِيرُ الكَاتِبُ، فَإِنَّ السُّنَّةَ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: إِذَا أُنْ تَكُونُ مَقْرَّرَةً وَمُؤَكَّدَةً لِحُكْمِ رُودِ فِي الْقُرْآنِ، وَإِذَا أُنْ تَكُونُ مَفْصَّلَةً وَمَفْسَّرَةً لِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ بِإِجْمَالٍ أَوْ تَقْيِيدٍ، أَوْ مَقْيَدَةً وَمَخْصَّصَةً لِمَا فَصَّلَ وَأَطْلَقَ فِي الْقُرْآنِ، وَإِذَا أُنْ تَكُونُ مَثْبُتَةً وَمُنْشِئَةً لِحُكْمٍ لَمْ يُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ. وَالسُّنَّةُ فِي الْفِكْرِ هِيَ مَجْمُوعَةُ الْقَوَانِينِ الَّتِي يَسِيرُ وَفَقْهًا الْوُجُودِ، وَتَتَحَرَّكُ

بموجبها الحياة. وتنقسم إلى سُنَّة إجباريَّة تشمل جميع الكائنات الحيَّة، وسُنَّة اختيارية ترتبط بالإرادة الإنسانيَّة. وتعدُّ السُّنن قانون الله العادل في الخلق؛ فحين تأخذ الأمم بسُنن العزَّة والتمكين، تنال العزَّ والازدهار، وإذا تخلَّت عن تلك السُّنن وركنت إلى الباطل والهوان ذاقت السُّقوط والخزي. وحين ينتشر الجهل والظلم في المجتمع، يبدأ بالتدهور والانهار. إنَّ جهل البشر بالسُّنن الربانيَّة التي تحكم حياة الأمم، لا يُغيِّر من طبيعتها، ولا يُبطل من مفعولها. ومِن العَبث أن تسعى أُمَّة إلى القيام من دون الأخذ بالسُّنن الإلهيَّة؛ إذ لا شيء يخرج عن المشيئة الإلهيَّة والسُّنن الربانيَّة.

السُّنن في القرآن تُشكِّل نظامًا واحدًا كليًّا شاملًا، يطال أبعاد الحياة كافة. وقد حثَّ القرآن الكريم على السير في الأرض، والنظر، والتأمل، والتفكير، حيث يقول تعالى: ﴿فَلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾¹، وذلك لمعرفة السُّنن الإلهيَّة الحاكمة في الحياة البشريَّة والكون، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾². وهذه السُّنن بطبيعتها ثابتة لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، كما في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾³، وقوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾⁴.

أمَّا الحضارة، فهي ثمرة ولادة داخليَّة، تنبع من أعماق المجتمع عندما يعيش ظرفاً يسمح بالنضج. وليس المقصود بقيام الحضارة مجرد ميلاد أُمَّة وظهورها على مسرح التاريخ، بل المقصود هو توافر عناصر الإبداع والانطلاق التي تُمكنها من أداء دور حضاريٍّ يُميِّزها عن باقي الأمم. وقد تطلَّ الأُمَّة في حالة من الرُكود الطويل نتيجة غياب هذه العناصر، فلا يلحقها أيُّ تحضُّر. ولا يحدث التَّحضُّر إلاَّ عبر التَّحوُّلات الداخليَّة التي تنبع من داخل الأُمَّة أو المجتمع، وترتبط بدورها بالتَّحوُّلات الخارجيَّة. وهذه النُّقلة الحضاريَّة من مرحلة إلى أخرى على سُلَّم التَّحضُّر، لا بُدَّ من أن تقوم على أُسس السُّنن الإلهيَّة، وإمكانيات الأُمَّة الذَّاتيَّة؛ فريدياً وجماعياً.

1- سورة العنكبوت، الآية 20.

2- سورة النساء، الآية 26.

3- سورة الأحزاب، الآية 62.

4- سورة فاطر، الآية 43.

في العصر الحديث، أصبح تصوُّر القضايا الإنسانية، ووضع المخططات الاقتصادية والتنمية، دلالة على القوَّة النَّفسية والاجتماعية للأمة. غير أنه، من دون عقيدة صحيحة راسخة في القلب، حيث مقرَّ الإيمان، لن تستطيع الإنسانية تجاوز الغرائز الأنانية الهابطة، وستترب من الانحلال والظلام. فالعقيدة ليست مجرد إيمان وجداني، بل هي منظومة قيمية تُترجم إلى ضوابط حضارية تحكم السلوك الفردي والمجتمعي.

تُبني الحضارات على أساس من الوحي، على يد الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض، والمكلف بعمارته، وذلك من خلال أتباع سُنن البناء الحضاري الإلهية، والتعرُّف على الذات الإنسانية في فطرتها وطبيعتها الأولى، وتحقيق غاية الوجود الإنساني، وهي عبادة الله. فالحالات الحضارية التي عرفها التاريخ لم تكن إلا نتاجاً للدور الذي مارسه الأمم.

المفكرون الغربيون والحضارة

قسّم «كارل ماركس» مراحل التاريخ، تاريخ صراع الطبقات، إلى خمس مراحل رئيسية: المرحلة البدائية، والمرحلة المستعبدة، والمرحلة الإقطاعية، والمرحلة الرأسمالية، والمرحلة الشيوعية. عندما تصل الأمة إلى مرحلة الشيوعية، وتزول الرأسمالية والبرجوازية بزوال الطبقات الاجتماعية، تنتهي أطوار التاريخ، وتحط الحضارات رحالها مع بداية «الفردوس الأبدي».

لقد فسّر ماركس حركة التطوُّر من خلال الصراع، وكذلك فعل «هيغل» (Hegel) و«دارون» (Darwin)، غير أن ماركس اعتمد القوَّة المادية، في حين اعتمد هيغل على القوَّة العقلية المعنوية، أمّا دارون فاعتمد على القوَّة، أي الصلاحية للبقاء.

قسّم «أوزفالد شبينغر» الشعوب إلى ثلاثة أنواع: شعوب أولية، وشعوب الفلاحة، وشعوب حضارية، وهي التي تتميز بأنّها ذات صورة خاصة بها، ليست مفتقرة إليها. هذه الشعوب هي التي تُشكل الأمم الحقيقية، ولكل أمة صورتها الخاصة التي تُميّزها.

وقد رفض تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، بوصفه ناتجاً عن رؤية أوروبية تضع أوروبا كمركز للعالم الحضاري. كذلك، اعتمد منهج «التوسُّم» لدراسة

تاريخ الحضارات والأمم يقوم على توسم الملامح وقراءة «السيما»؛ إذ يتخذ من ملامح الحوادث رموزاً للروح التي أبرزتها. فكل ظاهرة، في رأيه، هي رمز وتعبير عن روح حضارية معينة.

رأى شينغلر أن الحضارة تولد حين تستمد الروح الفطرية الأولية للأمة، ثم تتطور هذه الروح لتصبح قوة معنوية، وتصبح كياناً موجوداً على رقعة من الأرض. بعد ذلك، تضعف قوة الروح وتعود كامنَةً عندما تتجسد في شكل دول وشعوب. ويرى أن لكل حضارة علاقة روحية رمزية بينها وبين أصحابها، وبواسطة هذه العلاقة تنازل الحضارة؛ لكي تحقّق ذاتها. ولكن، عندما تتحقّق هذه الغاية، يتصلّب كيانها ويجمد وجدانها، وكأنّ الحضارة وُلدت لتموت، وقامت لتسقط في مرحلة المدينة. في هذه المرحلة، تنشأ المدن، لكنّ سكانها لا يمثّلون أمة. فالحضارة، إذاً، عند شينغلر تمرّ بأطوار مثل الكائن البيولوجي.

لقد اختار «أرنولد توينبي» إحدى وعشرين حضارة لدراستها، وتبيّن له أنّ جميعها نشأت استجابةً لتحديات الظروف التي وُجدت فيها، وأنها تمرّ بمراحل وأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدّم، يعقبها مراحل من التّفكك والتّصدّع، نتيجة العجز عن الاستجابة للتحديات. ورأى أنّه لا يمكن دراسة تاريخ أمة بمعزل عن تاريخ بقية الأمم؛ لأنّها جزء من الكل المتكامل للمجتمع الإنساني.

وأشار توينبي إلى الانشطار العموديّ الناتج عن الاضطرابات الكبرى التي تبدأ من القمة إلى قاعدة المجتمع، والتي تُمهّد إلى التدهور الحضاريّ وسقوطه، وإلى الانشطارات الأفقية التي تُحدث تمزّقاً في المجتمع، فيتفكك إلى دويلات وجماعات متناحرة. وأكد أنّ سقوط الحضارة لا يحدث طرفة واحدة، بل يأخذ فترة زمنية تبقى خلالها الحضارة في حال من التّجبر والتّجمّد تشبه الموت.

ويبيّن توينبي أنّ عوامل السقوط، تتمثّل في ثلاثة أمور: فشل القوة الخلاقة لدى الصّفوة من الأمة، وفتور إيمان الأكثرية، وفقدان وحدة المجتمع. ففي الدورة الحضارية، عندما تُسيطر الأقلية المبدعة وتحرض على السلطان، تفقد إعجاب الأغلبية بها، فتبدأ الصّراعات في المجتمع. أمّا القوة التي تُمثّل التّقدّم الصّاعد في حركة التاريخ، فهي عامل واحد فقط: الدين.

المفكّرون المسلمون والحضارة

رأى ابن خلدون أنّ الحضارات تمرّ بثلاث مراحل: مرحلة البداوة، مرحلة تأسيس الدولة وسنّ القوانين، ثمّ مرحلة الحضّر، التي غالبًا ما تنغمس فيها الأمة في الترف، فيدركها الاضمحلال. إنّ حركة التاريخ لا تتوقّف، ولكن لكلّ حضارة حدّ ينتهي عنده عمرها، ومن هذا الحدّ تستأنف أمة جديدة مسيرتها الحضاريّة. لقد عدّ ابن خلدون أنّ الأخلاق ضرورة لتماسك المُلْك الذي لا يُعزّز إلاّ بالشريعة والقيام لله، وأنّ تحديد الغاية ضرورة، أيضًا، لتتّجه نحوها القوّة الاجتماعيّة المكوّنة من القوّة العصبية. كذلك، أكّد أنّ الظواهر الاجتماعيّة تتطوّر من مرحلة إلى أخرى في إطار المكان، مع التأكيد على عموميّة السُنن وشموليّتها وثباتها في نظريّته حول العمران البشريّ.

أمّا مالك بن نبيّ، فقد أشار إلى أنّ الحضارة تمرّ بثلاث مراحل: مرحلة الرّوح؛ وهي الانطلاقة مع فكرة دينيّة، مرحلة ظهور الانحرافات المجتمعيّة؛ في هذه المرحلة تبقى قلة مستقيمة تواصل رسالة التّحضّر، ومرحلة تفكك الحضارة وانهارها مع سيادة النزعة الفرديّة وانطلاق الغرائز. وأكّد على أنّ الحضارات لم تقم إلاّ على أساس دينيّ، وأنّ أعظم التّغييرات المتقدّمة في التاريخ كانت أيام ازدهار الفكرة الدّينيّة.

ولمعرفة أمراض المجتمعات، لا بُدّ من دراسة «الأنا» لدى الأفراد، والّا استظلل النّظرة إلى الأمّة سطحيّة، ولن تُرصد علل المفاسد الحضاريّة. ومن السُنن الإلهيّة أنّه حين تُهيمن الغفلة على العقل وتنكمش الرّوح، تنطلق الغرائز فتظهر الأمراض الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، وغيرها.

وأما أبو الأعلى المودوديّ، فقد قدّم تصوّرًا لقيام الحضارة الإسلاميّة على أساس الغاية التي بُعث من أجلها الرُّسل، وهي: إحداث الانقلابات الفكريّة النّظريّة في عموم النّاس، وتكوين جماعات مؤمنة بالفكر الجديد، وإقامة الحكم الإسلاميّ وتنظيم كافّة أبعاد الحياة على أساسه، ثمّ الانطلاق لتوسيع دائرة سيادته، وذلك من خلال المنهج: أي العقيدة والجماعة والمجتمع والجهاد.

لقد أعلن المودوديّ ما أسماه بـ«الثالوث الإسلاميّ»، والمتمثّل في: مبدأ التّسليم لله وطاعته، ومبدأ الإنسانيّة، ومبدأ حاكميّة الله وخلافة المؤمنين، وذلك كبديل لـ«الثلاثيّة اللادينيّة»: العلمانيّة، القوميّة، الديمقراطيّة.

ورأى المودودي أن كل حضارة تنبثق عن تصوّر للوجود وتصور للإنسان وعلاقته بما حوله من سائر الموجودات، وعلاقته بالكون وما ورائه. وهذا يعني أن العقيدة هي الأساس في قيام الحضارات وازدهارها. لذلك، فإنّ التّعرف على أيّ حضارة يتطلب التّعرف أولاً على عقيدتها، ومعرفة الغاية التي تسعى لتحقيقها. ويشير إلى أن عوامل سقوط الحضارات، هي في الأساس داخلية وذاتية. فكل حضارة، بمجرد نشأتها، تحمل في طياتها بذور فنائها.

كذلك، أشار المودودي إلى أن الحضارة الغربية هي ذات فلسفة مادية وطابع الحاديّ موروث منذ جاهليتها اليونانية. وقد طوّعت المسيحية بحيث أصبح التدين لا يتعدى الطقوس، ولا أثر له في الحياة العملية عند الأغلبية الغالبة. كما أن النهضة العلمانية لهذه الحضارة جعلتها تركز إلى العلل المادية، متخليّة عن تصوّرها؛ أي الاعتقاد بـ«الفاعل الأوحد»، وهو الله.

سُنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها

تتعاقب الحضارات على الأمم، وتتبدّل بين القوّة والضعف، وتتحرك جميعها وفق السُنن الإلهية. لقد كانت الحضارات التي تنبثق عن تعاليم الوحي والأنبياء مختلفة في جميع شؤونها عن تلك التي تنشأ على غير هدى من الله. فطبيعة سنة الله أنها سارية، ثابتة، لا تتبدّل، ويُعامل بها الحاضرون والمستقبلون تماماً كما عومل بها السابقون من الأمم.

من أهم أسباب قيام الحضارة: تصوّر الوجود انطلاقاً من الإرادة الإلهية، ومعرفة السُنن والقوانين التي تحكم حركة التاريخ، والنظر والتأمل في أحوال الماضين للاعتبار، والاهتمام بسلامة الفطرة، والاعتقاد بوحداية الله تعالى، والإقرار بالعبودية له، والسير في مراتب الإيمان، وإدراك أثر العبادة في مستويات الأمة النفسية والاجتماعية كافة. بذلك، يكون كل تحرّك وتوجّه إنساني باسم الله ولله؛ أي «القيام لله». فالعبودية لله هي عين الحرّية والوقاية؛ إذ تُحرّر الإنسان وتقيه من كل تطرّف ونقص، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾¹.

ومن أبرز أسباب سقوط الحضارة وهلاكها: انتشار الفواحش في المجتمع مع

سكوت النَّاسِ عن تغييرها، وظهور النَّقص والتَّطْفِيفِ فِي الكَيْلِ والمِيزَانِ، وعموم الفساد الجماعي، والظُّلم الشَّامِلِ الَّذِي يَطَالُ جميع العلاقات الإنسانيَّة الشَّخصيَّة، والسياسيَّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، إلى جانب سائر أنواع الانحرافات والفساد. قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾¹. إنَّ سقوط الحضارة يكون نتيجة لأسباب داخليَّة متعلِّقة بضلال سلوك الإنسان، وقد يتجلَّى هذا السُّقوط في هيئة هلاك وإبادة، وتغيُّر الأحوال الاجتماعيَّة، وانتشار الأمراض النَّفسيَّة والجسديَّة، وظهور الهوان والذلِّ في المجتمع، وكذلك ألوان الشَّقَاءِ نتيجة التَّخلِّي عن معالي الأمور.

سُنَنُ التَّجَدُّدِ وَالاسْتِبْدَالِ الْحَضَارِيِّ

كما أنَّ للحضارات سُنَنًا فِي الْقِيَامِ والسُّقُوطِ، فَإِنَّ لَهَا كَذَلِكَ سُنَنًا فِي التَّجَدُّدِ وَالاسْتِبْدَالِ. فذهاب أُمَّة ونشوء أخرى ليس عبثًا. والحضارة لا تتجدَّد إلا في إطار منطلقها الأوَّل، ورؤيتها الكونيَّة، واستحضار ماضيها وتوظيفه في خدمة الواقع. التَّجَدُّدُ عمليَّة ذاتيَّة داخليَّة، تشمل جميع مكوِّنات الأُمَّة: الرُّوحِيَّة، والأنفسيَّة، والجسديَّة، بما يُمكنها من استئناف دورها الحضاري، والدَّفْعِ إِلَى المواقِعِ الأماميَّة. فالتَّغْيِيرُ الذَّاتِي، إِذَا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾²، والإعداد الذَّاتِي، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾³؛ هذان القانونان مطلوبان في التَّجَدُّدِ الْحَضَارِيِّ.

وكما أنَّ الاستبدال الحضاريَّ يصيب الأُمَّة التي ترتدَّ عن دينها، ولا تُراعي مقومات بقائها واستمرارها، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾⁴، كذلك الحَبُّ والبغض في الله، أي تولِّي أولياء الله والتَّبَرُّؤِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، هو معيار جوهرِيَّ لسلوك الأفراد، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾⁵.

1- سورة الأعراف، الآية 56.

2- سورة الرِّعد، الآية 11.

3- سورة الأنفال، الآية 60.

4- سورة محمَّد، الآية 38.

5- سورة المائدة، الآية 54.

سُنن الاستخلاف والتّمكين ووراثة الأرض

من سُنّة الله في الاستخلاف أن يكون المُستخلف من الأُمم والأفراد أهلاً وكفوّاً لذلك. وهي سُنّة لا تُنال إلاّ بتحقيق الإيمان والعمل الصّالح، والسّعي لتحقيق إرادة الله في الأرض، وتوطيد الدّين في النّفوس، فعندما يُغتصب هذا الحقّ، يجب السّعي لاسترداده بما يتوافق مع السُنن الإلهيّة.

ومن سُنن الله، كذلك، أن التّمكين لا يكون إلاّ بعد الابتلاء، وهي سُنّة عامّة تشمل المؤمنين والكافرين. فقد يُمكن الكافر استدراجاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾¹.

لقد نسي الغرب الله، وبذل جهداً عظيماً في طلب الدّنيا، فمكّن الله له بحسب السُنن؛ إذ يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا لِنَفْسٍ أَلَيْسَ لَهَا أُجْرٌ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾². ولا يحصل تمكين المستضعفين من دون إعداد نفسيّ ومجتمعيّ حقيقيّ. إن وراثة الأرض وعدّ إلهيّ لعباد الله الصّالحين، لكنّه وعدّ مشروط بأمر عدّة، منها: العدل، والاستقامة، والاستعانة بالله، والصّبر، والتّقوى. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾³، ويقول: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁴. وعليه، فإنّ مصير الأُمم مرهون بعقيدها وبصيرتها وسلوكها وأعمالها.

خلاصة

يميل أصحاب المذاهب المادّيّة والوضعيّة والإلحاديّة إلى الاعتقاد بالاكْتفاء الذاتيّ للكُون، والتّطور التلقائيّ للكائنات. غير أنّ القرآن الكريم يؤكّد على وجود سُنن إلهيّة ثابتة وساريّة في الوجود، لا بُدّ من اتّباعها لتحقيق الارتقاء، خصوصاً في ما يتعلّق بالأُمم، من حيث استخلافها ووراثة الأرض، وقيامها الحضاريّ

1- سورة الأنعام، الآية 44.

2- سورة هود، الآية 15.

3- سورة الأنبياء، الآية 105.

4- سورة الأعراف، الآية 128.

وتمكينها، أو سقوطها بانتهاء أجلها، أو تجديدها، أو استبدالها. فلكل حضارة أجلٌ، ولا تسقط إلا بعد أن تستنفد مسوغات بقائها، وعندها تقوم حضارة أخرى أو تتجدد. وعليه، فإنَّ السُّننَ الإلهية لا تتحوّل ولا تتبدّل، بل إنها مع فساد الأمة وانحرافها يكون هلاكها، ومع صلاحها واستقامتها يكون ازدهارها.

في معرض حديث الكاتب حول سُنن القرآن، والتي ينصّ بعضها على نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، يلاحظ أن هذه السُنن تبقى مرتبطة بمجموعة من العوامل والشروط، منها: إيمان الأفراد أنفسهم، وعامل التربية، الذي يأخذ أحياناً منحى جلالياً لتحقيق مصلحة المجتمع ككل. كما أن تلك القوانين مرتبطة بالبعدين الفردي والجماعي، ممّا يجعل شبكة السُنن في الوجود معقّدة، وتحتاج إلى تعمّق ودراسات متعدّدة في هذا المجال.

لهذا، عند الحديث عن التباين الحضاريّ الناتج عن التفاوت في فهم السُنن، من الضّروريّ أولاً إبراز المعنى الحقيقيّ للحضارة، ورسم صورتها من خلال الرؤية القرآنيّة؛ إذ عادةً ما يتبادر إلى الأذهان المفاهيم الوضعيّة ومعانيها التي تفتقر إلى المصادق الخارجيّ، وهي أمور وهميّة، وظنيّة، وسطحيّة. تكمن قوّة النصّ في إشارته لاحقاً إلى العبوديّة لله، بوصفها معياراً للتّقدّم الحضاريّ. هذا التأكيد على ضرورة تحقيق هذا المعيار في جميع مجالات الحياة، يجعله يقترب من التّصوّر القرآنيّ.

تقوم الأمم أو «الحضارات» وتسقط. ولكن، هل حقاً قامت حضارة في التاريخ باتّمْ صور القيام؛ أي أنها تمتلك مقومات الحياة في كلّ بُعْدٍ من أبعادها الاجتماعيّة والوجوديّة وتحقّق الإرادة الإلهية على الأرض؟! التاريخ يشهد بتفاوت في درجات هذا القيام، تبعاً للسّعة المعرفيّة لنخب المجتمع، ومن ثمّ نصرّة المجتمع ككلّ لخطّ تلك النّخب الإلهية.

وفي الختام، ربّما كان من الأفضل لو أشار الكاتب إلى قضيّة الحساب الفرديّ والجماعيّ؛ فالأمم تحاسب على أعمالها وسيرها الوجوديّة، وهو ما سيتجلّى في المرتبة الأخرويّة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾¹. من هنا، تأكّد أهميّة التوبة الجماعيّة لنيل الفلاح في الدنيا والآخرة؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا

أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١﴾. فالأُمم تتحرَّك في حالة ديناميكيَّة، مدفوعة فطريًّا نحو تحقيق الحضارة، غير أنَّ جهلها بسُنن اللّٰه، وغفلتها عنها، وسعيها لتحديد الدِّين عن الفكر الاجتماعيِّ يُوَدِّي إلى سقوطها وانهارها.